الاصْطِفَاءُ الإِلَهِيُّ وَالانْحِرَافُ التَّارِيْخِيُّ:
المُفَارَقَةُ الكُبْرَى فِي تَجْرِبَةِ بَنِي إِسْرَائِيل

◆ الأستاذ الدكتور فاضل مدب متعب المسعودي[1]

■ **خلاصة**

يعالج البحث إشكاليَّة الاصطفاء الإلهي في التاريخ الديني من خلال دراسة تجربة بني إسرائيل بوصفها نموذجًا يجمع بين التكريم الإلهي والانحراف التاريخي. يوضّح أنّ الاصطفاء في المنظور القرآني اختيار مشروط بالتقوى والعمل والالتزام بالعهد، وليس تفضيلاً عرقيًّا دائمًا. فقد منح الله بني إسرائيل النبوَّة والكتاب والنعم والتمكين لهدايتهم، لكنَّ انحرافاتهم المتكرِّرة، كتحريف النصوص، ونقض المواثيق، وعبادة العجل، وقتل الأنبياء عليهم السلام أدَّت إلى سقوط مكانتهم ووقوعهم في الذلَّة والغضب الإلهي. كما يفنِّد البحث دعوى الشعب المختار مبيِّنًا أنَّ الكرامة الإلهيَّة تقوم على السلوك والإيمان لا النسب. ويؤكِّد أنَّ ذروة الاصطفاء تجلَّت في بعثة النبي محمَّد صلى الله عليه وآله وسلم برسالة عالميَّة خالدة مهيمنة على الرسالات السابقة. ويخلص إلى أنَّ الاصطفاء تكليف ومسؤوليَّة خُلُقيَّة وتاريخيَّة، وأنَّ التفاضل الحقيقي يتحقَّق بالتقوى والعمل الصالح لا بالانتماء القومي. وبذلك يبرز البحث المفارقة الكبرى بين النعمة الإلهيَّة والانحراف البشري، وأثرها في تغيير مسار الأمم، وسقوط الامتياز عند الإخلال بالشروط الإيمانيَّة وفق الرؤية القرآنيَّة الشاملة للتاريخ الديني.

الكلمات المفتاحية: الاصطفاء الإلهي، بنو إسرائيل، النبوَّة المحمَّديَّة، الانحراف، الشعب المختار.

---

١ - بروفيسور علوم القرآن والتفسير، أستاذ الدراسات العليا في كليَّة الفقه.. جامعة الكوفة.

Divine Selection, Historical Deviation
Great Paradox in Children of Israel Experience

◆ **Prof. Fadel Medab Muteib al-Masoudi**

Professor of Quranic Sciences and Interpretation, Professor of Graduate Studies at the College of Jurisprudence [Fiqh], al- Kufa University.

■ Abstract

The research discusses the issue of divine selection in religious history by examining the experience of the Children of Israel as a case that combines both divine honor and historical deviation. It explains that, from an Islamic perspective, Allah's selection is based on piety, good actions, and commitment to the covenant, rather than being a permanent racial preference. Allah, Almighty, granted the Children of Israel prophethood, the scriptures, blessings, and power to guide them, but their repeated errors, such as altering scriptures, breaking promises, worshiping the calf, and killing prophets,led to the loss of their status and resulted in Allah's anger. It also challenges the idea of the "chosen people," highlighting that true honor comes from faith and actions, not lineage. It points out that the highest form of selection is seen in the mission of Prophet Mohammad (peace be upon him), who brought a universal, lasting message that supersedes previous ones. The research concludes that selection is both a moral and historical responsibility, and real distinction is achieved through piety and righteous deeds, not through national identity. Therefore, it emphasizes the contradiction between divine blessings and human mistakes, and how this has shaped the fate of nations, showing that privilege is lost when religious conditions are violated according to the Qur'anic perspective of religious history.

Keywords:

Divine Selection, Children of Israel, Mohammad Prophethood, Deviation, the Chosen People.

مقدّمة

إنَّ مسألة الاصطفاء الإلهي للأنبياء والرسل عليهم السلام، تُعدّ من أعمق المسائل العقديَّة والتاريخيَّة في الفكر الديني، فهي تحمل في طيَّاتها أسرار الحكمة الإلهيَّة، في اختيار مَن يصطفيهم لحمل رسالة التوحيد إلى البشر.

ومن بين هذه المواضيع الجليلة، تبرز قضيَّة اصطفاء النبي الخاتم محمَّد ﷺ وتفضيل نبوَّته على ما سبقها من نبوَّات، خاصّةً تلك التي جاءت في بني إسرائيل الذين حظوا بعدد كبير من الأنبياء والرسل، وكانت لهم صولات وجولات في تاريخ الدعوة التوحيديَّة.

لقد جاء القرآن الكريم ليؤسِّس لهذا التفضيل في إطارٍ من الحكمة والبيان، فمن ناحية أكرمَ الأنبياء السابقين وقرَّر نبوَّاتهم، ومن ناحية أخرى بيّن المكانة الفريدة للنبي الخاتم ﷺ وامتياز شريعته على ما سبقها. قال تعالى: ﴿**تِلْكَ الرُّسُلُ فَضَّلْنَا بَعْضَهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ**﴾ [البقرة: ٢٥٣]، مؤصِّلاً لمبدأ التفضيل بين الأنبياء، ثمَّ يعلن في آية أخرى: ﴿**وَلَقَدْ آتَيْنَا بَنِي إِسْرَائِيلَ الْكِتَابَ وَالْحُكْمَ وَالنبوَّة**﴾ [الجاثيَّة: ١٦]، ليقرّر ما حظوا به من اصطفاء سابق.

لكنّ هذا الاصطفاء الإسرائيلي، بكلّ ما حمله من تاريخ طويل، كان تمهيدًا وتوطئةً للاصطفاء الأعظم، اصطفاء الأُمَّة المحمَّديَّة والنبوَّة الخاتمة. فجاءت النبوَّة المحمَّديَّة شاملةً وعامةً، وخالدةً إلى قيام الساعة، مصدِّقةً لما بين يديها من الرسالات، ومهيمنةً عليها. قال تعالى: ﴿**وَأَنزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ الْكِتَابِ وَمُهَيْمِنًا عَلَيْه**﴾ [المائدة: ٤٨].

وهنا تبرز الإشكاليَّة البحثيَّة: كيف عرضت النصوص الشرعيَّة والتراث التفسيري مسألة

تفضيل النبوَّة المحمَّديَّة على نبوَّة بني إسرائيل؟ وما مظاهر هذا التفضيل وعلاماته؟ وكيف تعامل القرآن مع تاريخ بني إسرائيل الاصطفائي، ليؤسِّس لمنزلة النبوَّة الخاتمة؟

إنَّ هذا البحث يسعى لتسليط الضوء على هذه القضيَّة من خلال منهج تحليلي يستند إلى النصوص القرآنيَّة والأحاديث النبويَّة، وآراء المفسِّرين والعلماء، متتبِّعًا خطى الحكمة الإلهيَّة في تدرّج الرسالات، وانتهائها بالرسالة المحمَّديَّة التي جمعت ما تفرَّق في السابقين، وتمَّمت الشرائع الأولى.

فالنبوَّة في بني إسرائيل، رغم قدمها وتعدّدها، كانت محكومة بسياق تاريخي خاص، وقاصرة على قومها في كثير من الأحيان، بينما جاءت النبوَّة المحمَّديَّة نبوَّة عالميَّة، تخاطب الإنس والجنّ، والأبيض والأسود، والعرب والعجم، في كل زمان ومكان. وهي النبوَّة التي حملت الشريعة الكاملة التي لم تنسخ، والمنهج المتكامل الذي استوعب حاجات البشريَّة الروحيَّة والماديَّة.

كما أنَّ النبي محمَّدا ﷺ جمع من الخصائص والصفات ما تفرّق في غيره من الأنبياء، فكان خاتم النبيّين، وإمام المرسلين، وحامل لواء الحمد يوم القيامة، وصاحب المقام المحمود، والشفاعة العظمى. وهذه الخصائص ليست مجرّد ألقاب بل هي دلائل على علوّ منزلته ﷺ ورفعة قدره عند ربّه.

تتناول هذه الدراسة المفارقة الكبرى بين الاصطفاء الإلهي الذي حظي به بنو إسرائيل، وما تبع ذلك من انحرافات تاريخيَّة وسلوكيَّة أدَّت إلى تغيير مسارهم ومصيرهم، ستبحث الدراسة في الجذور التاريخيَّة والمسار الزمني لبني إسرائيل، ثمَّ تنتقل إلى تحليل مفهوم الاصطفاء والتفضيل الإلهي ومظاهره وغاياته، لتنتقل بعد ذلك إلى استعراض الانحرافات السلوكيَّة والخُلُقيَّة التي اتسموا بها. وأخيرًا، ستناقش العواقب والمصير الذي آلوا إليه نتيجة هذه الانحرافات، محاولةً تفنيد زعمهم بأنَّهم "شعب الله المختار" في ضوء سلوكهم التاريخي.

أوّلًا: الاصطفاء في اللغة والاصطلاح:

١-الاصطفاء في اللغة: من صفا يصفو اصطفاء، قال (ابن فارس): الصاد والفاء والحرف المعتل أصل واحد يدل على الخلوص من كل شوب[١].

يقول تعالى في القرآن الكريم: ﴿**إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَى آدَمَ وَنُوحًا وَآلَ إِبْرَاهِيمَ وَآلَ عِمْرَانَ عَلَى الْعَالَمِينَ**﴾ [آل عمران: ٣٣]. هنا اصطفى تعني اختارهم وفضَّلهم على غيرهم لصفات خاصّة فيهم.

إذن، الاصطفاء في اللغة: هو الانتقاء والاختيار لأفضل العناصر وأنقاها وأصلحها بعد التمحيص والتصفية، ما يعطي دلالة على التفضيل الخاصّ وليس مجرّد الاختيار العادي.

٢-الاصطفاء في الاصطلاح: الاصطفاء هو الاختصاص بحال خالصة من الأدناس، ويقال ذلك على وجهين: يقال: اصطفاه لنفسه، أي جعله خالصًا له يختصّ به.

والثاني: اصطفاه على غيره، أي اختصّه بالتفضيل على غيره[٢].

وقال (الطبرسي) في تفسيره (مجمع البيان): «الاصطفاء والاختيار والاجتباء نظائر، وهو افتعل من الصفوة. وهذا من أحسن البيان الذي يمثّل به المعلوم بالمرئي، وذلك أنّ الصافي هو النقي من شائب الكدر في ما يشاهد. فمثّل الله تعالى خلوص هؤلاء القوم من الفساد بخلوص الصافي من شائب الأدناس»[٣].

وقال (السيد الطباطبائي): «الاصطفاء أخذ صفوة الشيء وتمييزه عن غيره إذا اختلطا، وينطبق هذا المعنى بالنظر إلى مقامات الولاية على خلوص العبوديَّة»[٤].

---

١ - ابن فارس: معجم المقاييس في اللغة، مادة (صفو)، ص٥٦٩.

٢ - محمد بن الحسن الطوسي: التبيان في تفسير القرآن، ج٢، ص٤٤٠.

٣ - الفضل بن الحسن الطبرسي: مجمع البيان، ج٨، ص٢٧٧.

٤ - محمد حسين الطباطبائي: الميزان في تفسير القرآن، ج١، ص٣٠٠.

إذن، الاصطفاء في المصطلح الإسلامي ليس اختيارًا عشوائيًّا أو مجرّد تفضيل دون حكمة، بل هو اختيار إلهي حكيم، مقترن بالتكريم والتأهيل للقيام بمَهمَّة سامية، وهو نعمة عظيمة يمنّ الله بها على من يشاء من عباده، وهم بدورهم يُحاسبون على حفظ هذه النعمة والقيام بحقها.

٣- معنىٰ الاصطفاء في كتب العهدين: جاء الاصطفاء في كتب العهدين بمعنىٰ الاختيار والانتخاب، ومن مصطلحاته المعبرّة عن الاختيار الكلمة العبريَّة (باحار) ومشتقّاتها والتي تعني (إنَّ الله قد اختاره)[١]، كما جاء في سفر التثنية: «الربّ إلهك قد اختاره من جميع أسباطك لكي يقف ليخدم باسم الربّ هو وبنوه كلّ الأيّام»[٢].

ويوجد معنىٰ للاختيار في عبارة أُخرىٰ مثل: (أتَّا بحرتانو) التي تعني (اخترتنا أنت)، و(عم سيجولاه) أو (عم نيحلاه) أي (شعب الإرث)[٣].

وفي العهد الجديد جاء الاصطفاء بمعنىٰ الاختيار وعبرَّ عنه بـ (ابن الله) ليدلَّ علىٰ القرب من الله واختصاصه له بالفضل[٤].

فقد ذكر إنجيل (مرقس) هذا المعنىٰ بقوله: «ولو لم يقصر الربّ تلك الأيّام لم يخلص جسد ولكن لأجل المختارين الذين اختارهم قصَّر الأيّام»[٥].

وفي إنجيل (يوحنّا): (ما دام لكم النور آمنوا بالنور لتصيروا أبناء النور)[٦].

لم يختلف معنى الاصطفاء عند قوم العهدين أنَّ المفهوم لديهم، هو أنَّهم يعتبرون أنفسهم شعب الله المختار.

---

١ - معجم اللاهوت الكتابي/ الموسوعة المسيحيَّة العربيَّة الالكترونيَّة/ مادّة (اختيار).
٢ - سفر التثنيَّة، إصحاح٥: ١٨.
٣ - عبد الوهّاب المسيري: موسوعة اليهود واليهوديَّة والصهيونيَّة، ج٧، ص١٦٢.
٤ - المحيط الجامع/ الموسوعة المسيحيَّة العربيَّة الالكترونيَّة/ مادّة (اختيار).
٥ - إنجيل متّىٰ ٢٤: ٢٢؛ إنجيل مرقس ١٣: ٢٠.
٦ - إنجيل يوحنّا ١٢: ٣٦.

ثانيًا: مقوّمات الاصطفاء واليهود:

١ - اصطفى الله أمَّة بني إسرائيل على سائر الأمم الوثنيَّة القائمة حينذاك، وجعل فيهم النبوَّة والكتاب والملك والشريعة:

وقال عنهم في محكم التنزيل: ﴿**وَلَقَدِ اخْتَرْنَاهُمْ عَلَىٰ عِلْمٍ عَلَى الْعَالَمِينَ**﴾ [الدخان: ٣٢] و﴿**يَا بَنِي إِسْرَائِيلَ اذْكُرُوا نِعْمَتِيَ الَّتِي أَنْعَمْتُ عَلَيْكُمْ وَأَنِّي فَضَّلْتُكُمْ عَلَى الْعَالَمِينَ**﴾ [البقرة: ٤٧] و﴿**وَلَقَدْ آتَيْنَا بَنِي إِسْرَائِيلَ الْكِتَابَ وَالْحُكْمَ وَالنبوَّة وَرَزَقْنَاهُم مِّنَ الطَّيِّبَاتِ وَفَضَّلْنَاهُمْ عَلَى الْعَالَمِينَ**﴾ [الجاثيَّة: ١٦]. و﴿**قَالَ أَغَيْرَ اللَّهِ أَبْغِيكُمْ إِلَٰهًا وَهُوَ فَضَّلَكُمْ عَلَى الْعَالَمِينَ**﴾ [الأعراف: ١٤٠]. فكان الاصطفاء لديهم قائمًا على أساس أنَّهم شعب الله المختار بناء على عهد إلهي مع أنبيائهم، ونسبهم الى نبي الله يعقوب (إسرائيل)، وكذلك الالتزام بالشريعة أو بوصايا موسى عليه السلام العشرة.. وغير ذلك.

إذن، يتحدَّد معنى الاصطفاء لديهم على اختيار قومي، وعلى تكليف خاصّ بهم على إقامة الشريعة اليهوديَّة، ولا يدخل في هذا التكليف غيرهم.

والاصطفاء في مفهومه اليهودي يجانب معناه في الاصطفاء الإسلامي؛ إذ إن الاسلام لا يعتبر الاصطفاء قائمًا على أثر عرقي أو قومي، قال تعالى: ﴿**يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُم مِّن ذَكَرٍ وَأُنثَىٰ وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا ۚ إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ ۚ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ**﴾ [الحجرات: ١٣]، فالاصطفاء في الشريعة الاسلاميَّة قائم على أساس التقوى والايمان، بغض النظر عن النسب والحسب، أو المكان والزمان.

ولنعلم أنَّ تفضيل بني إسرائيل كان في مرحلة تاريخيَّة في سياق خطّة الله التربويَّة والإرشاديَّة للبشريَّة، تميّزت بوابل من النعم والبراهين لهدايتهم. وهو تفضيلٌ ناشئ عن حكمة الله تعالى، وليس تفوّقًا جوهريًّا أو ميزة دائمة، وقد انتهت خصوصيَّته تلك ببعثة النبي محمَّد صلى الله عليه وآله وسلم للناس كافّة.

٢- ظهرت بركات هذا الاصطفاء والاختيار في حياة بني إسرائيل من خلال ما يأتي:

أ. كثر فيهم الأنبياء المصلحون، قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ آتَيْنَا بَنِي إِسْرَائِيلَ الْكِتَابَ وَالْحُكْمَ وَالنبوَّة وَرَزَقْنَاهُم مِّنَ الطَّيِّبَاتِ وَفَضَّلْنَاهُمْ عَلَى الْعَالَمِينَ﴾ [الجاثيَّة: ١٦].

ب. العزّ والتمكين بعد الذلّ والمهانة. قال تعالى: ﴿وَأَوْرَثْنَا الْقَوْمَ الَّذِينَ كَانُوا يُسْتَضْعَفُونَ مَشَارِقَ الْأَرْضِ وَمَغَارِبَهَا الَّتِي بَارَكْنَا فِيهَا ۖ وَتَمَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ الْحُسْنَىٰ عَلَىٰ بَنِي إِسْرَائِيلَ بِمَا صَبَرُوا ۖ وَدَمَّرْنَا مَا كَانَ يَصْنَعُ فِرْعَوْنُ وَقَوْمُهُ وَمَا كَانُوا يَعْرِشُونَ﴾ [الأعراف: ١٣٧] و ﴿وَإِذْ نَجَّيْنَاكُم مِّنْ آلِ فِرْعَوْنَ يَسُومُونَكُمْ سُوءَ الْعَذَابِ يُذَبِّحُونَ أَبْنَاءَكُمْ وَيَسْتَحْيُونَ نِسَاءَكُمْ ۚ وَفِي ذَٰلِكُم بَلَاءٌ مِّن رَّبِّكُمْ عَظِيمٌ﴾ [البقرة: ٤٩]، ﴿وَإِذْ فَرَقْنَا بِكُمُ الْبَحْرَ فَأَنجَيْنَاكُمْ وَأَغْرَقْنَا آلَ فِرْعَوْنَ وَأَنتُمْ تَنظُرُونَ﴾ [البقرة: ٥٠] ﴿وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنكُمْ وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِي الْأَرْضِ كَمَا اسْتَخْلَفَ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ الَّذِي ارْتَضَىٰ لَهُمْ وَلَيُبَدِّلَنَّهُم مِّن بَعْدِ خَوْفِهِمْ أَمْنًا ۚ يَعْبُدُونَنِي لَا يُشْرِكُونَ بِي شَيْئًا ۚ وَمَن كَفَرَ بَعْدَ ذَٰلِكَ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ﴾ [النور: ٥٥].

ج. كثرة النعم عليهم :قال تعالى: ﴿وَظَلَّلْنَا عَلَيْكُمُ الْغَمَامَ وَأَنزَلْنَا عَلَيْكُمُ الْمَنَّ وَالسَّلْوَىٰ ۖ كُلُوا مِن طَيِّبَاتِ مَا رَزَقْنَاكُمْ ۖ وَمَا ظَلَمُونَا وَلَٰكِن كَانُوا أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ﴾ [البقرة: ٥٧] و ﴿وَإِذِ اسْتَسْقَىٰ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِ فَقُلْنَا اضْرِب بِّعَصَاكَ الْحَجَرَ ۖ فَانفَجَرَتْ مِنْهُ اثْنَتَا عَشْرَةَ عَيْنًا ۖ قَدْ عَلِمَ كُلُّ أُنَاسٍ مَّشْرَبَهُمْ ۖ كُلُوا وَاشْرَبُوا مِن رِّزْقِ اللَّهِ وَلَا تَعْثَوْا فِي الْأَرْضِ مُفْسِدِينَ﴾ [البقرة: ٦٠] [1].

وهذه البركات والنعم العظيمة التي خصّها الله لبني اسرائيل أغرَّتهم وأورثتهم الكبر والتعالي، فزعموا أنَّهم شعب الله المختار إلى الأبد، وأنَّ هذا الاختيار قائم على حسن حسبهم

١ - مقومات الاصطفاء بين المسلمين واليهود.

ونسبهم، ولا علاقة له بالإيمان والعمل، فقد جاء في توراتهم المحرَّفة قولها: (ولكن عهدي أقيمه مع إسحاق الذي تلده لك سارة في هذا الوقت من السنة الآتية). ويعتبرون هذا العهد والاصطفاء ماضيًا فيهم إلى قيام الساعة. ففي نصّ آخر تقول التوراة: (يدعو اسمه إسحاق وأقيم معه عهدًا وأبديًا لنسله من بعده)[1].

يؤكِّد الفكر الإسلامي أنَّ مكانة الشعب المختار أو الأُمَّة الخير لم تعد ثابتة لأحد، بل انتقلت بناء على معيار جديد، وهو: خيريَّة الأُمَّة الإسلاميَّة التي تقوم على أساس عقيدة ومنهج، وهي مفتوحة لكلّ من يؤمن بها، بينما ادّعاء اليهود يقوم على أساس عنصري مغلق.

وبالتالي، فإنَّ خيريَّة الأُمَّة الإسلاميَّة جاءت لأنَّها أُمَّة رسالة تدعو إلى المعروف وتنهى عن المنكر، وتؤمن باللّه، وهي وسطيَّة وشاهدة على الناس، وهذا التكريم مشروط بالقيام بهذا الدور.

٣- التكريم الإلهي متعلّق بالعمل لا بالنسب:

لم يستحقّ بنو إسرائيل هذا الاختيار والاصطفاء، فكان المحق والغضب عليهم نصيبهم؛ لأنّ الاصطفاء مشروط بشروط لم يوفوا بها، ﴿**يَا بَنِي إِسْرَائِيلَ اذْكُرُوا نِعْمَتِيَ الَّتِي أَنْعَمْتُ عَلَيْكُمْ وَأَوْفُوا بِعَهْدِي أُوفِ بِعَهْدِكُمْ وَإِيَّايَ فَارْهَبُونِ**﴾ [البقرة: ٤٠]، فعندما نكثوا عهد الله لم يبقهم الله أُمَّة الاختيار والاصطفاء، قال تعالى: ﴿**سَلْ بَنِي إِسْرَائِيلَ كَمْ آتَيْنَاهُم مِّنْ آيَةٍ بَيِّنَةٍ ۗ وَمَن يُبَدِّلْ نِعْمَةَ اللَّهِ مِن بَعْدِ مَا جَاءَتْهُ فَإِنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ**﴾ [البقرة: ٢١١] ، وقال لهم: ﴿**وَإِذْ تَأَذَّنَ رَبُّكُمْ لَئِن شَكَرْتُمْ لَأَزِيدَنَّكُمْ ۖ وَلَئِن كَفَرْتُمْ إِنَّ عَذَابِي لَشَدِيدٌ**﴾ [إبراهيم: ٧] ، و﴿**ذَٰلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ لَمْ يَكُ مُغَيِّرًا نِّعْمَةً أَنْعَمَهَا عَلَىٰ قَوْمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُوا مَا بِأَنفُسِهِمْ ۙ وَأَنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ**﴾ [الأنفال: ٥٣].

---

١ - سفر التكوين، إصحاح ١٧.

التكريم الإلهي لبني إسرائيل كان تكليفًا ومسؤوليَّة، وليس تمييزًا دائمًا دون شروط، أو تفضيلاً لهم على غيرهم من دون ضوابط ومقوّمات عالية القيمة، تورث لديهم التفضيل الأبدي، فعندما أهملوا العمل الصالح وخلّوا بالعهد، سقطوا من هذه المكانة. وهذا يتوافق مع المبدأ الديني العام: القيمة عند الله تكون بالأعمال الصالحة والإخلاص، وليس بالأنساب.

٤- تحوّل الأُمّة المصطفاة إلى أُمَّة ملعونة:

قوله تعالى: ﴿**اهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ* صِرَاطَ الَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ غَيْرِ الْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَلَا الضَّالِّينَ**﴾ [الفاتحة: ٦-٧]، قال أهل العلم: المغضوب عليهم هم اليهود، والضالّون هم النصارى، وفي آية أخرى قال -عزّ وجلّ- من قائل: ﴿**...وَبَاءُوا بِغَضَبٍ مِّنَ اللَّهِ ۗ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ كَانُوا يَكْفُرُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ وَيَقْتُلُونَ النَّبِيِّينَ بِغَيْرِ الْحَقِّ ۗ ذَٰلِكَ بِمَا عَصَوا وَّكَانُوا يَعْتَدُونَ**﴾ [البقرة: ٦١] و﴿**وَقَالُوا قُلُوبُنَا غُلْفٌ ۚ بَل لَّعَنَهُمُ اللَّهُ بِكُفْرِهِمْ فَقَلِيلًا مَّا يُؤْمِنُونَ**﴾ [البقرة: ٨٨] ، و﴿**لُعِنَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِن بَنِي إِسْرَائِيلَ عَلَىٰ لِسَانِ دَاوُودَ وَعِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ ۚ ذَٰلِكَ بِمَا عَصَوا وَّكَانُوا يَعْتَدُونَ**﴾ [المائدة: ٧٨]، و﴿**... وَلُعِنُوا بِمَا قَالُوا ...**﴾ [المائدة: ٦٤]، ومن غضب الله عليهم مسخ بعضهم قردة وخنازير: ﴿**وَلَقَدْ عَلِمْتُمُ الَّذِينَ اعْتَدَوْا مِنكُمْ فِي السَّبْتِ فَقُلْنَا لَهُمْ كُونُوا قِرَدَةً خَاسِئِينَ**﴾ [البقرة: ٦٥]، ﴿**قُلْ هَلْ أُنَبِّئُكُم بِشَرٍّ مِّن ذَٰلِكَ مَثُوبَةً عِندَ اللَّهِ ۚ مَن لَّعَنَهُ اللَّهُ وَغَضِبَ عَلَيْهِ وَجَعَلَ مِنْهُمُ الْقِرَدَةَ وَالْخَنَازِيرَ وَعَبَدَ الطَّاغُوتَ ۚ أُولَٰئِكَ شَرٌّ مَّكَانًا وَأَضَلُّ عَن سَوَاءِ السَّبِيلِ**﴾ [المائدة: ٦٠].

بسبب هذه المخالفات، وعدم التزامهم بالوعد الإلهي، ظهر ذلك في تشتيتهم وإذلالهم وخسارة مكانتهم.

٥- الاصطفاء ينتقل إلى أمة جديدة وبالشروط نفسها التي أعطيها بنو إسرائيل.

يشير إليها القرآن الكريم فيصفها بقوله تعالى: ﴿**كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ**

﴿بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ ۗ وَلَوْ آمَنَ أَهْلُ الْكِتَابِ لَكَانَ خَيْرًا لَّهُم ۚ مِّنْهُمُ الْمُؤْمِنُونَ وَأَكْثَرُهُمُ الْفَاسِقُونَ﴾ [آل عمران: ١١٠]. ويأتي التعليل في تحوّل الاصطفاء من اليهود الى أمّة المصطفي بقوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ كَتَبْنَا فِي الزَّبُورِ مِن بَعْدِ الذِّكْرِ أَنَّ الْأَرْضَ يَرِثُهَا عِبَادِيَ الصَّالِحُونَ﴾ [الأنبياء: ١٠٥]، ﴿قُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ وَسَلَامٌ عَلَىٰ عِبَادِهِ الَّذِينَ اصْطَفَىٰ ۗ آللَّهُ خَيْرٌ أَمَّا يُشْرِكُونَ﴾ [النمل: ٥٩] ، و﴿ثُمَّ أَوْرَثْنَا الْكِتَابَ الَّذِينَ اصْطَفَيْنَا مِنْ عِبَادِنَا ۖ فَمِنْهُمْ ظَالِمٌ لِّنَفْسِهِ وَمِنْهُم مُّقْتَصِدٌ وَمِنْهُمْ سَابِقٌ بِالْخَيْرَاتِ بِإِذْنِ اللَّهِ ۚ ذَٰلِكَ هُوَ الْفَضْلُ الْكَبِيرُ﴾ [فاطر: ٣٢]، ﴿وَجَاهِدُوا فِي اللَّهِ حَقَّ جِهَادِهِ ۚ هُوَ اجْتَبَاكُمْ وَمَا جَعَلَ عَلَيْكُمْ فِي الدِّينِ مِنْ حَرَجٍ ۚ مِّلَّةَ أَبِيكُمْ إِبْرَاهِيمَ﴾ [الحج: ٧٨][1].

ثالثًا: انحرافات بني إسرائيل:

جاء في قوله تعالى: ﴿وقالوا قلوبنا غلف بل لعنهم الله بكفرهم﴾ [البقرة: ٨٨]، شهادة على بني إسرائيل باعترافهم أنّ قلوبهم غلف، أي في غطاء وأغطية، فلا تفقه ولا تعي ما تقول، في إشارة إلى عنادهم وإعراضهم عن سبيل الحقّ، ليأتي الردّ من الله -سبحانه- بتكذيب قولهم، وأنّ قلوبهم مطبوع عليها وهم ملعونون ما دامت الدنيا بهم.

لقد قطع بنو إسرائيل شوطًا طويلاً في عالم الانحراف، فحرفوا الكلم عن مواضعه، وكفروا بآيات الله، وقتلوا الأنبياء بغير حقّ، وقالوا قلوبنا غلف. وبعد هذا كلّه يدّعون أنّ الله فضّلهم على العالمين.

إنّ الضلال الذي دقّ قوم نوح أوتاده انتهى آخر الأمر إلى سلالة بني إسرائيل، بمعنى أنّ الانحراف الذي وضعه قوم نوح، ضرب الله أصحابه بالغرق ليكونوا عبرة لمن يأتي بعدهم، أما الانحراف نفسه فإنّ طرحه على الأجيال في كل زمان مَهمَّة شيطانيَّة.. فالشيطان يلتقط

١ - مقومات الاصطفاء بين المسلمين واليهود.

الانحراف بعد التجربة الإنسانيَّة الأولى، ثمّ يزيّنه بما يستقيم مع جيل آخر. وبعد انتهاء الجيل، يقوم بتعديل الانحراف بعد التجربة الإنسانيَّة الثانية. ليلقيه على جيل ثالث، وهكذا.

فمن كان له عبرة في السلف، وتذكّر الطوفان والرياح والصيحة وغير ذلك.. ابتعد بفطرته النقيَّة عن مصادر الشذوذ الملوّن، والانحراف المغلّف بأغلفة برّاقة، أمّا الذين تربّعت عبادة العجول على عقولهم، فإنّ في ذرّيَّتهم تتجمّع جميع الانحرافات، ابتداءً من (قابيل) قاتل أخيه، وانتهاء بآخر انحراف وآخر شذوذ.

وقد استحوذ بنو إسرائيل على جميع الانحرافات، ثمَّ قاموا بنشرها على صفحة العالم للصدِّ عن سبيل الله، معتمدين في ذلك على أديان اخترقوها وقاموا بتوجيهها نحو أهدافهم، وأيضًا على منظّمات وجمعيّات تحمل لافتات برّاقة، ظاهرها الرحمة والعدل، وباطنها العذاب الأليم.

ونحن سنوجز هنا انحرافات الأوائل التي استقرّت في السلالة الإسرائيليَّة، بعد أن قام تلاميذ الشيطان بتحويرها وتهذيبها وتجميلها، حتى استقرّت في الصورة الأخيرة.

بصمة انحراف قوم نوح: كما ذكرنا من قبل أن قوم نوح عبدوا الأصنام، ورفضوا بشريَّة الرسول، وأطاحوا بسُنَّة العدل الاجتماعي، فقسَّموا البشر إلى أقوياء وضعفاء، فالأقوياء هم الأشراف، والضعفاء هم الأراذل، وبنو إسرائيل لم يخرجوا قيد أنملة عن هذا، لقد عبدوا العجل واتَّبعوا الأهواء.

أمَّا رفضهم للرسول الخاتم ﷺ.. فلقد رفعوا هذه اللافتة في وجه نبي الله الاكرم محمَّد ﷺ. قال تعالى: ﴿**يَسْأَلُكَ أَهْلُ الْكِتَابِ أَن تُنَزِّلَ عَلَيْهِمْ كِتَابًا مِّنَ السَّمَاء فَقَدْ سَأَلُواْ مُوسَى أَكْبَرَ مِن ذَلِكَ فَقَالُواْ أَرِنَا اللّهِ جَهْرَةً فَأَخَذَتْهُمُ الصَّاعِقَةُ بِظُلْمِهِمْ**﴾ [المائدة: ٦٤]، قال المُفسّرون: أهل الكتاب هم اليهود والنصارى، وعليه فالسائل هو الطائفتان جميعًا لا اليهود فحسب. والطائفتان ترجعان إلى أصل واحد. وهو شعب إسرائيل، بعث الله إليهم موسى وعيسى عليهما السلام، ودعوة عيسى انتشرت بعد رفعه في غير بني إسرائيل، وما قوم عيسى بأقلّ ظلمًا

لعيسى من اليهود لموسى (عليه السلام)[1].

لقد سألوا رسول الله أن ينزّل عليهم كتابًا من السماء مكتوبًا من الله إلى فلان وفلان، بتصديقه في ما جاءهم به[2]. وهذا السؤال بعد ما كانوا يشاهدونه من أمر القرآن، لم يكن إلا سؤالاً جزافيًّا لا يصدر إلا ممن لا يخضع للحقّ ولا ينقاد للحقيقة، وإنَّما يلغوا ويهذوا بما قدّمت له أيدي الأهواء، من غير أن يتقيّد بقيد أو يثبت على أساس[3].

ولذا نرى أنَّهم عندما طالبوا موسى(عليه السلام) بأن يجعل لهم آلهة من دون الله، ردّهم (عليه السلام) إلى دائرة التفضيل التي لا تستند إلا على الدين الحقّ. قال تعالى: ﴿**وَجَاوَزْنَا بِبَنِي إِسْرَآءِيلَ الْبَحْرَ فَأَتَوْاْ عَلَى قَوْمٍ يَعْكُفُونَ عَلَى أَصْنَامٍ لَّهُمْ قَالُواْ يَا مُوسَى اجْعَل لَّنَا إِلَهًا كَمَا لَهُمْ آلِهَةٌ قَالَ إِنَّكُمْ قَوْمٌ تَجْهَلُونَ*إِنَّ هَؤُلاء مُتَبَّرٌ مَّا هُمْ فِيهِ وَبَاطِلٌ مَّا كَانُواْ يَعْمَلُونَ*قَالَ أَغَيْرَ اللّهِ أَبْغِيكُمْ إِلَهًا وَهُوَ فَضَّلَكُمْ عَلَى الْعَالَمِينَ*وَإِذْ أَنجَيْنَاكُم مِّنْ آلِ فِرْعَونَ يَسُومُونَكُمْ سُوءَ الْعَذَابِ....**﴾ [الانعام: ٨٣-٨٨]، قال المفسّرون: كانت نفوسهم قد تأثَّرت بالعبادات المصريَّة؛ لذلك كانوا يتصوَّرون أنَّ الله -سبحانه- جسم من الأجسام! وكلّما كان موسى (عليه السلام) يقرّب لهم الحقّ إلى أذهانهم حوَّلوه إلى أشكال وتماثيل.

لهذه العلَّة لما شاهدوا في مسيرهم قومًا يعكفون على أصنام لهم استحسنوا مثل ذلك لأنفسهم، فسألوا موسى (عليه السلام) أن يجعل لهم إلهًا كما لهم آلهة يعكفون عليها، فقال: كيف ألتمس لكم ربًّا مصنوعًا وهو غير الله ربّكم، وإذا كان غيره فعبادته متبرّة وباطلة. فقالوا: فكيف نعبده ولا نراه. ولا سبيل لنا إلى ما لا نشاهده - كما يقول عبدة الأصنام - فقال: اعبدوه بما تعرفونه من صفته؛ فإنَّه فضَّلكم على سائر الأمم بآياته الباهرة ودينه الحقّ، وإنجائكم

١ - راجع: الفضل بن الحسن الطبرسي: مجمع البيان، ج١، ص٢٨٣؛ فتح الله الكاشاني: زبدة التفاسير، ج١، ص٢١٠؛ محمد حسين الطباطبائي: الميزان في تفسير القرآن، ج٦، ص٣٦.

٢ - ابن كثير: تفسير القرآن العظيم، ج١، ص٧٦.

٣ - محمد حسين الطباطبائي: الميزان في تفسير القرآن، ج٥، ص١٣٠.

من فرعون وعمله، فدفعهم موسى عليه السلام بألطف بيان وأوجز برهان يجلي عن الحقّ الصريح لأذهان ضعيفة التعقّل[1].

لقد ردّهم عليه السلام إليه بصفته رسول الله، الذي على يديه شاهدوا المعجزات، وبصفته أعلم الناس بدين الله الحقّ؛ لأنَّ الله فضله على العالمين، وبردّهم إليه أدخلهم في دائرة التفضيل. وهم داخل هذه الدائرة ما داموا في ظلال الأنبياء عليهم السلام.

رابعًا: الاصطفاء الإلهي لآل محمَّد صلى الله عليه وآله وسلم:

إنّ الرسول صلى الله عليه وآله وسلم هو الشخصيَّة الفريدة في تاريخ البشريَّة أجمع، لم تلد الأرحام مثله، ولم تقل الأرض ندّه، ولم تظلّ السماء كشخصه، عظيم في خَلقه وخُلقه، سراج منير، ورحمة مهداة للعالمين، وإمام الأنبياء، وسيّد الأتقياء، وفريد في خصائصه.

اصطفاه الله -تعالى- على جميع أنبيائه، فكان هذا من عظيم فضله، وواسع منّته، فالله -تعالى- بيده الملك كلّه، والخير إليه وبين يديه، وهو على كلّ شيء قدير، يؤتي الملك من يشاء، ويصطفي من عباده من يريد، يرفع أقوامًا ويضع آخرين، قال الله تعالى: ﴿**قُلِ اللَّهُمَّ مَالِكَ الْمُلْكِ تُؤْتِي الْمُلْكَ مَن تَشَاءُ وَتَنزِعُ الْمُلْكَ مِمَّن تَشَاءُ وَتُعِزُّ مَن تَشَاءُ وَتُذِلُّ مَن تَشَاءُ ۖ بِيَدِكَ الْخَيْرُ ۖ إِنَّكَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ**﴾ [آل عمران: ٢٦]، قال (ابن كثير): "وفي هذه الآية تنبيه وإرشاد إلى شكر نعمة الله تعالى على رسوله صلى الله عليه وآله وسلم وهذه الأُمَّة؛ لأنَّ الله حول النبوَّة من بني إسرائيل إلى النبي العربي القرشي المكيّ الأُمّي خاتم الأنبياء على الإطلاق، ورسول الله إلى الثقلين الإنس والجن الذي جمع الله فيه محاسن من كان قبله، وخصّه بخصائص لم يعطها نبي من الأنبياء، ولا رسول من الرسل، في العلم بالله وشريعته واطلاعه على الغيوب الماضيَّة والآتيَّة، وكشفه عن الحقائق الآخرة، ونشر أُمّته في الآفاق، في مشارق الأرض ومغاربها،

١ - راجع: محمد بن الحسن الطوسي: تفسير التبيان، ج٤، ص٥٢٧؛ ابن حجر العسقلاني: فتح الباري في شرح صحيح البخاري، ج٦، ص٣١٤؛ محمد حسين الطباطبائي: الميزان في تفسير القرآن، ج٧، ص٢٤٣.

وإظهار دينه وشرعه على سائر الأديان، والشرائع، فصلوات الله وسلامه عليه دائمًا إلى يوم الدين، ما تعاقب الليل والنهار"[1].

يقول (السيد الطباطبائي) في قوله تعالى: ﴿قُلِ اللَّهُمَّ مَالِكَ الْمُلْكِ تُؤْتِي الْمُلْكَ مَن تَشَاءُ وَتَنزِعُ الْمُلْكَ مِمَّن تَشَاءُ وَتُعِزُّ مَن تَشَاءُ وَتُذِلُّ مَن تَشَاءُ ۖ بِيَدِكَ الْخَيْرُ ۖ إِنَّكَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾، أنَّها نزلت «في شأن أهل الكتاب وخاصّة اليهود؛ لاشتماله على وعيدهم وتهديدهم بعذاب الدنيا والآخرة: ومن العذاب ما سلب الله عنهم الملك، وضرب عليهم الذلّ والمسكنة إلى يوم القيامة، وأخذ أنفاسهم، وذهب باستقلالهم في السؤدد، على أنّ غرض السورة - كما مرّ بيانه - أنّ الله سبحانه هو القائم على خلق العالم وتدبيره، فهو مالك الملك يملك من يشاء، ويعزّ من يشاء؛ وبالجملة هو المعطي للخير لمن يشاء، وهو الآخذ النازع للملك والعزة ولكل خير عمّن يشاء، فمضمون الآيتين غير خارج عن غرض السورة.

قوله تعالى: «قل اللهمّ مالك الملك»، أمر بالالتجاء إلى الله -تعالى- الذي بيده الخير على الإطلاق، وله القدرة المطلقة ليتخلّص من هذه الدعاوى الوهميَّة التي نشبت في قلوب المنافقين والمتمرّدين من الحقّ من المشركين وأهل الكتاب، فضلّوا وهلكوا بما قدروه لأنفسهم من الملك والعزّة والغنى من الله سبحانه، ويعرض الملتجئ نفسه على إفاضة مفيض الخير والرازق لمن يشاء بغير حساب»[2].

وظهرت آثار ذلك الاصطفاء في شمول رسالته وبقاء معجزته، وعلوّ خصائصه، وتميّز أُمّته، وعظيم مكانته في الدنيا والآخرة، فلقد تجاوزت مَهمَّاته حدود الزمان والمكان، وكما بيَّنا سابقًا أنَّ اصطفاء الأنبياء اعتمد على عناصر أساس، ذكرت سابقًا، وكان للرسول محمَّدﷺ المنزلة العُليا منها. ولقد انتقى الله كلّ الأنبياءعليهم السلام، من بين البشر جميعًا، فكانوا هم صفوة الناس، ومن تلك الصفوة اصطفى الله تعالى رسله،

١ - ابن كثير: تفسير القرآن العظيم، ج٢، ص٢٩.

٢ - محمد حسين الطباطبائي: الميزان في تفسير القرآن، ج٣، ص ١٢٨.

ثمَّ اختار الله منهم أولو العزم(عليهم السلام)، فكانوا صفوة الصفوة، ثمَّ اصطفى الله -تعالى- من تلك الكوكبة الصافية رسوله وخليله محمَّدًا (صلى الله عليه وآله وسلم) وأهل بيته (عليهم السلام)، فتوَّجه ملك الصفاء، ورقاه قمَّته، وخصَّه بأعلى منازله، فكان بإرادة الله -تعالى- وعلمه هو المحمود النبي المصطفى، والرسول المجتبى، والخليل المرتضى. والله -تعالى- أعلم حيث يجعل رسالته، فلا يختار لها بعلمه إلا من هم أهل لذلك.

أهل البيت (عليهم السلام): ورثة علم الأنبياء وكتبهم:

قال الإمام الحسين (عليه السلام) :(إنَّ اللهَ اصطَفى محمَّدا صَلّى اللهُ عليهِ وَآلِهِ عَلى خَلقِهِ، وأكرَمَهُ بِنُبُوَّتِهِ، واختارَهُ لِرِسالَتِهِ)[1].

وانطلاقًا من قول الإمام الحسين (عليه السلام) المتقدّم، يتَّضح أنَّ الاصطفاء الإلهي ليس غاية في ذاته بل يُنبئ عن إرادة ربَّانيَّة في اختيار الأمثل من البشر؛ لحمل مسؤوليَّة الرسالات الإلهيَّة، وهذا ما يشير إليه قوله (عليه السلام) آنف الذكر، فيختار الله -عزَّ وجلَّ- أنبياءه ورسله، لما يجده فيهم من مقوّمات عظيمة ومؤهّلات عالية، ولما يراه مناسبًا لقومهم، وملائمًا لعصرهم وزمانهم، فهو -تعالى- الذي يختار ويجتبي صفوته من خلقه، فيستخلصهم لنفسه، ويولي عنايته الخاصّة بهم، وينقّيهم من كلّ شوب ودنس وكدرة؛ وذلك كلّه لأجل النهوض بأعباء ومسؤوليَّات النبوَّة والإمامة.

ثمَّ إنَّ هناك أسبابًا ومناشئ لهذا النحو من الاصطفاء، أصولها العلم، والعدل، والحكمة، فإنَّ الله -تعالى-لو علم باستعداد إنسان لكمالات معيَّنة، فإنَّه -تعالى- بمقتضى حكمته وعدله سوف يهيِّئ له ما يوصله إلى ما استعدّ له.

وفي ضوء هذا؛ لمَّا علم الله تعالى منذ الأزل باستعداد هذه المجموعة من البشر

---

١ - محمد بن جرير الطبري: تاريخ الأمم والملوك، ج٣، ص٢٨.

وهم الأنبياء والأوصياء لتحمّل مقامات الرسالة والولاية، فإنّ الله تعالى قد اصطفاهم واختارهم، وهيّأ لهم ما يمكّنهم من وصولهم إلى ما استعدّوا له[1].

قد يُقال: إنّ علم الله بالأشياء قبل خلقها ينافي اختياريَّة الإنسان.

والجواب: لا منافاة بين علم الله -تعالى- بما يؤول إليه الإنسان وبين الاختيار؛ وذلك لأنَّ العلم الإلهي تعلّق بكيفيَّة صدور الفعل عن الإنسان على النحو الاختياري بقيد الاختيار؛ لأنَّه لو كان صدور الفعل من الإنسان جبرًا، لتخلّف علمه عن الواقع، فاللّه -تعالى- شاءت إرادته أن لا يوجد الفعل إلا بعد تحقّق شرطه، وهو اختيار الإنسان.

وفي آية التطهير دليل قرآني على تحديد أهل البيت عليهم السلام، ودليل على عصمتهم في قوله تعالى: ﴿إِنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيُذْهِبَ عَنكُمُ الرِّجْسَ أَهْلَ الْبَيْتِ وَيُطَهِّرَكُمْ تَطْهِيرًا﴾ [الأحزاب: ٣٣].

يقول (الطبرسي) في مجمع البيان: «قال أبو سعيد الخدري وأنس بن مالك وواثلة بن الأسقع وعائشة وأم سلمة أنَّ الآية مختصّة برسول الله صلى الله عليه وآله وعلي وفاطمة والحسن والحسين عليهم السلام.

وذكر أبو حمزة الثمالي في تفسيره حدثني شهر بن حوشب عن أم سلمة قالت: جاءت فاطمة عليها السلام إلى النبي صلى الله عليه وآله تحمل حريرة لها، فقال: ادعي زوجك وابنيك، فجاءت بهم، فطعموا ثمَّ ألقى عليهم كساءً له خيبريًّا، فقال: اللهمَّ هؤلاء أهل بيتي وعترتي، فأذهب عنهم الرجس وطهّرهم تطهيرا، فقلت: يا رسول الله وأنا معهم؟ قال: أنت إلى خير...»[2].

و«الروايات في هذا كثيرة من طريق العامّة والخاصّة لو قصدنا إلى إيرادها لطال الكتاب وفي ما أوردناه كفاية، واستدلّت الشيعة على اختصاص الآية بهؤلاء الخمسة عليهم السلام بأن قالوا: إنّ لفظة إنمَّا محقّقة لما أثبت بعدها، نافية لما لم يثبت، فإنَّ قول القائل إنمّا لك عندي درهم، وإنمَّا في الدار زيد يقتضي أنّه ليس عنده إلا الدرهم وليس في الدار إلا زيد. وإذا تقرّر هذا، فلا تخلو الإرادة في الآية أن تكون هي الإرادة المحضة أو الإرادة التي يتبعها التطهير وإذهاب

١ - علي حمود العبادي: أصول العقيدة في النصّ الحسيني، ص٢٤٥.

٢ - الفضل بن الحسن الطبرسي: مجمع البيان، ج٨، ص-١٥٦-١٥٥.

الرجس، ولا يجوز الوجه الأول؛ لأنَّ الله -تعالى- قد أراد من كلّ مكلّف هذه الإرادة المطلقة، فلا اختصاص لها بأهل البيت دون سائر الخلق، ولأنَّ هذا القول يقتضي المدح والتعظيم لهم بغير شكّ وشبهة ولا مدح في الإرادة المجرّدة، فثبت الوجه الثاني. وفي ثبوته ثبوت عصمة المعنيين بالآية من جميع القبائح، وقد علمنا أنَّ من عدا من ذكرناه من أهل البيت غير مقطوع على عصمته، فثبت أنَّ الآية مختصَّة بهم لبطلان تعلّقها بغيرهم، ومتى قيل إنَّ صدر الآية وما بعدها في الأزواج، فالقول فيه إنَّ هذا لا ينكره من عرف عادة الفصحاء في كلامهم؛ فإنَّهم يذهبون من خطاب إلى غيره، ويعودون إليه، والقرآن من ذلك مملوء، وكذلك كلام العرب وأشعارهم»[1].

وفي وجهة نظر (السيد الطباطبائي): «كلمة (إنمَّا) تدلّ على حصر الإرادة في إذهاب الرجس والتطهير، وكلمة أهل البيت سواء كان لمجرد الاختصاص أم مدحًا أم نداء يدلّ على اختصاص إذهاب الرجس والتطهير بالمخاطبين بقوله: (عنكم)، ففي الآية في الحقيقة قصران: قصر الإرادة في إذهاب الرجس والتطهير، وقصر إذهاب الرجس والتطهير في أهل البيت.

وليس المراد بأهل البيت نساء النبي خاصّة؛ لمكان الخطاب الذي في قوله: (عنكم)، ولم يقل: عنكنَّ. فأمَّا أن يكون الخطاب لهنَّ ولغيرهن، كما قيل: إنَّ المراد بأهل البيت أهل البيت الحرام وهم المتّقون لقوله تعالى: (إن أولياؤه إلا المتقون)، أو أهل مسجد رسول الله ﷺ، أو أهل بيت النبي ﷺ وهم الذين يصدق عليهم عُرفًا أهل بيته من أزواجه وأقربائه، وهم: آل عباس، وآل عقيل، وآل جعفر، وآل عليّ، أو النبي ﷺ وأزواجه، ولعلَّ هذا هو المراد ممَّا نسب إلى عكرمة وعروة أنَّها في أزواج النبي ﷺ خاصَّة. أو يكون الخطاب لغيرهن... وعلى أي حال، فالمراد بإذهاب الرجس والتطهير مجرّد التقوى الديني بالاجتناب عن النواهي وامتثال

١ - الفضل بن الحسن الطبرسي: مجمع البيان، ج٨، ص١٥٧-١٥٨.

الأوامر فيكون المعنى أنَّ الله لا ينتفع بتوجيه هذه التكاليف إليكم وإنما يريد إذهاب الرجس عنكم وتطهيركم على حدّ قوله: (ما يريد الله ليجعل عليكم من حرج و لكن يريد ليطهركم و يتم نعمته عليكم)، وهذا المعنى لا يلائم شيئًا من معاني أهل البيت السابقة لمنافاته البيّنة للاختصاص المفهوم من أهل البيت لعمومه لعامة المسلمين المكلفين بأحكام الدين.

وإن كان المراد بإذهاب الرجس والتطهير التقوى الشديدة البالغة، ويكون المعنى: أن هذا التشديد في التكاليف المتوجِّهة إليكنَّ أزواج النبيّ وتضعيف الثواب والعقاب ليس لينتفع الله سبحانه به بل ليذهب عنكم الرجس ويطهّركم، ويكون من تعميم الخطاب لهنّ ولغيرهنّ بعد تخصيصه بهنّ، فهذا المعنى لا يلائم كون الخطاب خاصًّا بغيرهنّ، وهو ظاهر، ولا عموم الخطاب لهنَّ ولغيرهن؛ فإنَّ الغير لا يشاركهن في تشديد التكليف وتضعيف الثواب والعقاب.

لا يقال: لم لا يجوز أن يكون الخطاب على هذا التقدير متوجّها إليهن مع النبي ﷺ وتكليفه شديد كتكليفهنَّ؛ لأنه يقال: إنَّه ﷺ مؤيَّد بعصمة من الله، وهي موهبة إلهيَّة غير مكتسبة بالعمل، فلا معنى لجعل تشديد التكليف وتضعيف الجزاء بالنسبة إليه مقّدمة أو سببًا لحصول التقوى الشديدة له، امتنانًا عليه على ما يعطيه سياق الآية، ولذلك لم يصرّح بكون الخطاب متوجّها إليهنّ مع النبي ﷺ أحد من المفسِّرين قط، وإنَّما احتملناه لتصحيح قول من قال: إنّ الآية خاصة بأزواج النبي ﷺ.

وإن كان المراد إذهاب الرجس والتطهير بإرادته -تعالى- ذلك مطلقًا لا بتوجيه مطلق التكليف، ولا بتوجيه التكليف الشديد بل إرادة مطلقة لإذهاب الرجس والتطهير لأهل البيت خاصّة بما هم أهل البيت كان هذا المعنى منافيًا لتقييد كرامتهن بالتقوى سواء كان المراد بالإرادة الإرادة التشريعيَّة أو التكوينيَّة»[1].

لقد أنزل الله تعالى القرآن هُدىً للعالَمين، وأمر نبيَّه الكريم ﷺ ببيانه وتفصيله للناس،

١ - محمد حسين الطباطبائي: الميزان في تفسير القرآن، ج١٦، ص٣٠٩- ٣١٠.

ووصف هذا القرآنَ بأنَّه قرآنٌ كريم، لا يَمَسُّهُ إلاّ المُطَهَّرون، والكلام في سياق تعظيم أمر القرآن، فمَسُّه هو العِلم به دون المسّ الظاهري باليد وحده. وممّا يؤكّد هذا المعنى الآية الأخرى التي تصف القرآن الكريم بأنّه في أُمِّ الكتابِ لَدَينا لَعليٌّ حكيم.

والمُطهَّرون هم الذين طهّر الله -تعالى- نفوسهم من أرجاس المعاصي وقذارات الذنوب، أو ممّا هو أعظم من ذلك، وهو تطهير قلوبهم من التعلّق بغير الله، وهذا المعنى من التطهير هو المناسب للمسّ الذي هو العِلم دون الطهارة من الخَبَث أو الحَدَث.

المطهّرون هم الذين أكرمهم الله بتطهير نفوسهم، وهم أهل البيت عليهم السلام الذين نزلت في حقّهم آية التطهير.

وهذا هو السبب الذي جعل النبيَّ صلى الله عليه وآله يوصي أمّته بالتمسّك بالثقلين، ويُخبرها بتلازمهما وعدم افتراقهما إلى يوم القيامة.

خامسًا: العاقبة والمصير (المفارقة الكبرى)

١- ضرب الذلة والمسكنة:

يشير الباري -تعالى- إلى العاقبة المذلة لذرائع الإسرائيليين وعنادهم وشهوة البطن لديهم، فيقول: ﴿**وَضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ الذِّلَّةُ وَالْمَسْكَنَةُ وَبَاءُوا بِغَضَبٍ مِنَ اللَّهِ ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ كَانُوا يَكْفُرُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ وَيَقْتُلُونَ النَّبِيِّينَ بِغَيْرِ الْحَقِّ ذَلِكَ بِمَا عَصَوْا وَكَانُوا يَعْتَدُونَ**﴾ [البقرة: ٦١]

إنّ ضرب المسكنة يورث الإخلاد إلى الأرض فقدت، فالأُمَّة المحكومة بمثل هذا الضرب تعيش كما يعيش الحيوان بل تكون كالجماد؛ لأنَّها تكون قد فقدت القدرة على الحركة الإنسانيَّة.

وقد علّلت الآية مسكنة بني إسرائيل وذلّتهم، وكونهم مغضوبًا عليهم بسبب كفرهم المستمر بآيات الله وقتلهم النبيّين بغير الحقّ، وسرّ ذلك يكمن في عصيانهم الدائم للأحكام الإلهيَّة وتعدّيهم المتواصل على الحدود والقوانين السماويَّة.

٢- الغضب الإلهي والمصير الأخروي

إنَّ بني إسرائيل هم من اشتروا الغضب الإلهي، ومع أنَّ الذلّة والمسكنة هما من مصاديق سخط الله، ومن الممكن أن يشملا العذاب الأخروي أيضًا، لكن جملة: ﴿**وضُربت عليهم الذلة والمسكنة**﴾ ناظرة إلى عذاب اليهود في الدنيا، بينما تشير جملة ﴿**وباءوا بغضب من الله**﴾ إلى عذابهم الأخروي.

وقد أخبر الله -جلَّ وعلا- في كتابه المجيد عن أنَّه قد مسخ رعيلاً من أسلافهم قردة وخنازير، كما قال تعالى: ﴿**قُلْ هَلْ أُنَبِّئُكُمْ بِشَرٍّ مِنْ ذَلِكَ مَثُوبَةً عِنْدَ اللَّهِ مَنْ لَعَنَهُ اللَّهُ وَغَضِبَ عَلَيْهِ وَجَعَلَ مِنْهُمُ الْقِرَدَةَ وَالْخَنَازِيرَ وَعَبَدَ الطَّاغُوتَ أُولَئِكَ شَرٌّ مَكَانًا وَأَضَلُّ عَنْ سَوَاءِ السَّبِيلِ**﴾ [المائدة: ٦٠]

فكيف يكونون شعب الله المختار وهم شرّ ما خلق الله في الأرض والأضلّ عن سواء السبيل.

٣- تفنيد زعم «شعب الله المختار» في ضوء السلوك

لقد تصدَّى القرآن لتفنيد زعمهم أنَّهم أولياء الله وأحبّاؤه دون سائر الناس في أكثر من موضع، فمن ذلك قوله -تعالى- في سورة الجمعة: ﴿**قُلْ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ هَادُوا إِنْ زَعَمْتُمْ أَنَّكُمْ أَوْلِيَاءُ لِلَّهِ مِنْ دُونِ النَّاسِ فَتَمَنَّوُا الْمَوْتَ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ**﴾ [الجمعة: ٦] ثمَّ قال تعالى: ﴿**وَلَا يَتَمَنَّوْنَهُ أَبَدًا بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِالظَّالِمِينَ**﴾ [الجمعة: ٧].

فهم أحرص الناس على حياة لعلمهم بما اقترفته أيديهم من عظائم الأمور وبما اجترحته من موبقات، وليقينهم أنَّ الله -تعالى- عليم بواقعهم ومخبوء سرائرهم.

إنَّ الوقوف على هذه الآيات كافٍ للإذعان بأنَّ التفضيل الذي أفادته الآيات إنَّما سيق لغرض ذمّهم؛ حيث تجاهلوا ما كان قد منحهم ربّهم من آلائه، ومن أسباب الهداية، وقابلوها بالتمرّد والعصيان والبغي على عباد الله جلَّ وعلا.

مناقشة:

تنوّعت الآيات الكريمة في الحديث عن بني إسرائيل، فهناك آيات التفضيل والاصطفاء وآيات التذكير بالنعم، ثمَّ آيات التحذير، والمواثيق وهناك آيات تشرح البلاء النازل على بني إسرائيل نتيجة عصيانهم؛ وهذا يعني أنَّ اصطفاء بني إسرائيل لم يكن اصطفاءً نوعيًّا لجنسهم ونسبهم فقط، ولا يعني أنَّهم في مأمن من عقاب الله وعذابه، كما لا يعني أنَّهم أفضل من سائر الخلق، فكما نزلت عليهم النعم نزل عليهم البلاء، وكما خاطبهم الله بالرحمة، خاطبهم بالتأنيب والتحذير وأنزل عليهم البلاء.

إنَّ الله تفضَّل عليهم بنعمه ورسالته ورفع قدرهم بإيمانهم به، والتزامهم بتعاليم الدين والسير في جادة الصواب، وبمجرَّد خروجهم عن الصراط المستقيم، ثمَّ إصرارهم على المعصية من بعد التحذير والتذكير، صار المعاندون منهم والعاصون محلَّ لعنة وعبرة للمتكبّرين.

وهذا ينقلنا إلى نقطة مُهمَّة، إنَّنا باعتبارنا أبناء آدم عليه السلام جرى اصطفاؤنا من قِبل الله في خلافة الأرض، وفضَّلنا على سائر مخلوقاته كما في قوله تعالى: ﴿**وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِي آدَمَ وَحَمَلْنَاهُمْ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ وَرَزَقْنَاهُمْ مِنَ الطَّيِّبَاتِ وَفَضَّلْنَاهُمْ عَلَى كَثِيرٍ مِمَّنْ خَلَقْنَا تَفْضِيلا**﴾ [الإسراء: ٧٠].

لكن هذا التفضيل لا يجعلنا في حصن من العقاب والنبذ بعد القُرب، وكوننا من بني آدم لا يعطينا أي حصانة في المعصية أو الاعتداء على سائر مخلوقات الله، كما أنَّ هذا التفضيل لا يعني أبدًا أنَّ باقي المخلوقات بلا قيمة عند الله، أو أنَّ أعمالهم وتسبيحهم وعبادتهم ليست محلّ تقدير الله وتكريمه وجزائه.

﴿**وَهُوَ الَّذِي جَعَلَكُمْ خَلَائِفَ الْأَرْضِ وَرَفَعَ بَعْضَكُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجَاتٍ لِيَبْلُوَكُمْ فِي مَا آتَاكُمْ إِنَّ رَبَّكَ سَرِيعُ الْعِقَابِ وَإِنَّهُ لَغَفُورٌ رَحِيمٌ**﴾ [الأنعام: ١٦٥] من ذلك قوله عز وجل: ﴿**... وَرَحْمَتِي وَسِعَتْ كُلَّ شَيْءٍ ...**﴾ [الأعراف: ١٥٦].

وقوله تعالى قوله: ﴿**وَمَا مِنْ دَابَّةٍ فِي الْأَرْضِ وَلا طَائِرٍ يَطِيرُ بِجَنَاحَيْهِ إِلا أُمَمٌ أَمْثَالُكُمْ مَا**

﴿فَرَّطْنَا فِي الْكِتَابِ مِنْ شَيْءٍ ثُمَّ إِلَى رَبِّهِمْ يُحْشَرُونَ﴾ [الأنعام: ٣٨] تؤكّد أنَّ جميع المخلوقات الحيَّة -من الحيوانات الأليفة والطيور- هي منظَّمة ونوعيَّة تشبه البشر في التدبير، والرزق، وتسبيح الله، وحشره يوم القيامة، ودلالة على كمال قدرة الله ورحمته وعلمه الشامل.

وهذه الآية تشير إلى تفاوت الدرجات بتفاوت المساعي؛ حتى لا يتوهَّم أنَّ قليل العمل وكثيره على حدّ سواء، ويسير السعي والسعي البالغ لا فرق بينهما، فإنَّ تسوية القليل والكثير، والجيّد والرديء في الشكر والقَبول ردّ في الحقيقة إلى ما يزيد به الأفضل عن غيره.

وأمَّا قوله: "انظر كيف فضلنا بعضهم على بعض"؛ أي بعض الناس على بعض في الدنيا، والقرينة على هذا التقييد قوله بعد: "وللآخرة أكبر"، والتفضيل في الدنيا هو ما يزيد به بعض أهلها على بعض من أعراضها وأمتعتها، كالمال، والجاه، والولد، والقوَّة، والصيت، والرئاسة، والسؤدد والقَبول عند الناس.

وقوله: "وللآخرة أكبر درجات وأكبر تفضيلاً"؛ أي هي أكبر من الدنيا في الدرجات والتفضيل، فلا يتوهَّمن متوهّم أنَّ أهل الآخرة في عيشة سواء، ولا أنَّ التفاوت بين معايشهم كتفاوت أهل الدنيا في دنياهم بل الدار أوسع من الدنيا بما لا يقاس؛ وذلك أنَّ سبب التفضيل في الدنيا هي اختلاف الأسباب الكونيَّة، وهي محدودة، والدار دار التزاحم وسبب التفضيل واختلاف الدرجات في الآخرة هو اختلاف النفوس في الإيمان والإخلاص وهي من أحوال القلوب، واختلاف أحوالها أوسع من اختلاف أحوال الأجسام بما لا يقاس، قال تعالى: ﴿**إن تبدوا ما فى أنفسكم أو تخفوه يحاسبكم به الله**﴾: البقرة: ٢٨٤ وقال: ﴿**يوم لا ينفع مال ولا بنون إلا من أتى الله بقلب سليم**﴾ [الشعراء: ٨٩].

ففي الآية أمره ﷺ أن ينظر إلى ما بين أهل الدنيا من التفاضل والاعتبار ليجعل ذلك ذريعة إلى فهم ما بين أهل الآخرة من تفاوت الدرجات والتفاضل في المقامات، فإنَّ اختلاف الأحوال في الدنيا يؤدّي إلى اختلاف الإدراكات الباطنة والنيّات والأعمال التي يتيسَّر للإنسان أن يأتي بها واختلاف ذلك يؤدّي إلى اختلاف الدرجات في الآخرة.

وبهذا نصل الى قناعة تامّة أنَّ التفضيل الحقيقي إنمَّا يكون في دار الجزاء بعد اجتياز هذا الاختبار بنجاح.

خاتمة:

توصَّل البحث إلى نتائج أجدها مُهمّة من وجهة نظري، ولا أدّعي عصمة ما جئت به، وإنّما هي محاولة معرفيَّة لخدمة العلم والعلماء، والنتائج هي:

١. أنَّ فعل الاصطفاء لم ينسب في القرآن الكريم إلا إلى الله وحده، فهو سبحانه المتفرّد به دون غيره، ولا يملك البشر القدرة عليه؛ لأنَّه فضل يثبت للمصطفى، لا ينزع منه، فلا يملك العلم التامّ بالخير المطلق إلا الله جلّ وحده.
٢. لا يختص الاصطفاء إلا بالخير والمنّ، ولا يقع لغير ذلك، فلا يصطفي الله -جلَّ جلاله- من مخلوقاته إلا أطيبها وأفضلها على الإطلاق، فالطيّب والخير من كلّ شيء هو مختاره ومصطفاه.
٣. الاصطفاء في المنظور القرآني يعني الاختيار والتفضيل الإلهي لأفراد أو أمم لأداء مَهامّ خاصّة. وقد ورد ذكره في ما يتعلّق بالأنبياء والأمم.
٤. منزلة خاتم النبيين: النبي محمَّد ﷺ هو خاتم الأنبياء والمرسلين كما في قوله تعالى: ﴿**مَا كَانَ مُحَمَّد أَبَا أَحَدٍ مِنْ رِجَالِكُمْ وَلَكِنْ رَسُولَ اللَّهِ وَخَاتَمَ النَّبِيِّينَ**﴾ [الأحزاب:٤٠].
٥. استمراريَّة رسالة النبي محمَّد ﷺ جاءت مصدّقًا لما بين يديه من التوراة ومهيمنًا عليها.
٦. الرسالة العالميَّة: بعثته الرسول ﷺ للناس كافّة، بينما كانت رسالات بني إسرائيل في الغالب لقومهم.
٧. يتّضح أنّ الاصطفاء الإلهي ليس غاية في ذاته، بل يُنبئ عن إرادة ربَّانيَّة

في اختيار الأمثل من البشر؛ لأحمل مسؤوليَّة الرسالات الإلهيَّة.

٨. لقد قطع بنو إسرائيل شوطًا طويلاً في عالم الانحراف. فحرَّفوا الكلم عن مواضعه. وكفروا بآيات الله. وقتلوا الأنبياء بغير حقّ، وقالوا قلوبنا غلف.

٩. أهل البيت عليهم السلام هم معلّمو القرآن لقد أنزل الله -تعالى- القرآن هُدىً للعالَمين، وأمر نبيَّه الكريم صلى الله عليه وآله ببيانه وتفصيله للناس، ووصف هذا القرآنَ بأنّه قرآنٌ كريم، لا يَمَسُّهُ إلاّ المُطَهَّرون.

المصادر والمراجع:

- القرآن الكريم
- علي حمود العبادي: أصول العقيدة في النص الحسيني، منشورات مؤسسة وارث الأنبياء، ط١، ١٤٣٧هـ.
- ناصر مكارم الشيرازي: الأمثل في تفسير كتاب الله، مدرسة الإمام علي بن أبي طالب عليه السلام، ١٤٢٦هـ.
- إنجيل متّىٰ.
- إنجيل مرقس.
- إنجيل يوحنّا.
- محمَّد بن الحسن الطوسي: التبيان في تفسير القرآن، ج٢، المطبعة العلميَّة، النجف الأشرف، ١٣٧٦هـ.
- ابن كثير: تفسير القرآن العظيم، مؤسسة قرطبة، ط١، ١٤٢١هـ.
- سفر التثنيَّة.
- سفر التكوين.
- محمَّد بن جرير الطبري: تاريخ الرسل والملوك، دار المعارف، ط٤ لا ت.
- الفضل بن الحسن: مجمع البيان، دار المرتضى، لا ط، ١٤٢٧هـ.
- المحيط الجامع، الموسوعة المسيحيَّة العربيَّة الالكترونيَّة.
- معجم اللاهوت الكتابي، الموسوعة المسيحيَّة العربيَّة الالكترونيَّة.
- ابن فارس: معجم المقايس في اللغة، دار الفكر، لا ط، ١٣٩٩هـ.
- مقومات الاصطفاء بين المسلمين واليهود،

https://share.google/TQymOjmvBim6r5Jcn.

- عبد الوهّاب المسيري: موسوعة اليهود واليهوديَّة والصهيونيَّة، دار الشروق، لا ط، ١٩٩٩م.
- محمَّد حسين الطباطبائي: الميزان في تفسير القرآن، مؤسسة الأعلمي، ط١، ١٤١٧هـ.